

تجارب إصلاح القرية في مصر

بقلم الدكتور أحمد حسين

مدير، دائرة الفلاح، وزارة الشؤون الاجتماعية

سنا نغني بإصلاح القرية إصلاح مبانها وكفى بل نغني توفير النعمة والطمانينة لأهلها ورفع مستواهم المادى والأدبى ، ولا شك أن القرية بسكانها والسكان بقريتهم ، لكل من هذين أثر في تكوين الآخر .

وأظنى في غنى عن تكرار الحديث في سوء حال القرية المصرية ، فما من أحد يجهل أن قرانا قد تقدمت عليها الأحقاب والقرون وهي مهملة متروكة على حالها التي هي أقرب ما تكون إلى الفطرة وساكنوها يمانون من الجهل والفقر والمرض ، لا يدركه الوصف ، ومشكلاتها ترايد وتتعدد وهي متشابكة مترابطة تحتاج معالجتها إلى جهد شاق وصبر مستمر ووقت طويل .

ولقد بلغ من سوء حال القرى أن المصلح العظيم محمد على الكبير خطر بباله لوفرة ما رأى في طريق الإصلاح من عقد أن يحرق جميع القرى المصرية ويبيد إنشائها على طراز جديد سليم أو لا أن مستشاريه استمهلوه ورجوه أن يعمد إلى التريث والتدرج ، وهذا هو ذى قرانا لا تزال كما تركها محمد على الكبير منذ أكثر من مائة عام ولم يزل عبء الإصلاح ثقيلا وعسيرا .

وإني مع ذلك كله لمتفائل ، إذ أن المهم تتحرك من كل جانب لمعالجة أحوال القرية وساكنتها وهذا نحن أولاء نرى جهودا عملية كريمة تبذل من جانب الحكومة ومن جانب هيئات ذات نفوذ واحترام كالجمعية الزراعية الملكية والجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وغيرها .

وأكبر طمى أن جميع من يشتغلون بالإصلاح قد ثبت في أذهانهم أن الداء المزمن لا يكفى لاستئصاله العلاج الوقى أو الجزئى . وأنه يعرض الغائبين به لفشل يؤدي إلى ضياع الجهود المضنية ولنفقات الباهظة ووراء ذلك ما وراءه من تشييط أهمه وفنورها عن المضى إلى آخر الطريق . لذلك كانت أول مرحلة يجب أن يقطعها المصلح هي وضع سياسة الإصلاح ، وهذا ما تقدمت به الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية بالاشتراك مع وزارة الشؤون الاجتماعية .

ولقد كان في بال الجمعية أن تسير في محولاتها لإصلاح القرية على أساس من البحث العلمى والتجربة العملية معا ، وأن تقصر تجاربها على قريتين في أول الأمر حتى إذا استكشفت في خطتها بعض الخطأ كان هذا الخطأ مقصورا على نواح قليلة فامكن تداركه بسهولة ، ولا يكون

الأمر كذلك إذا عممنا التجربة في أعداد العظم من الجهات فإننا يومئذ نستهدف لخطر الخطأ الشامل الذى يتعدى تلافيه ويكون هو مشكلة جديدة بجانب ما أمامنا من مشكلات .

سيقول قائل : أما شعبم أبحاثا ودراسات ؟ فنقول إن الدراسة مع التجربة للعملية لا تزال ضرورية ، لأن هناك آراء سلمها الكل وآمن بها لكل ثم جاءت الدراسات الأخيرة والتجارب العملية التى افترت بها فأثبتت خطأ ما أحمنا عليه من قبل ، ولأضرب لذلك مثيلين :

ألم تهق كلمة الباحثين وفي مقدمتهم أصحاب صرا كى عالية وثقات معدودون على أن الشاى الأسود من أضر المشروبات بصحة الفلاحين ومواردهم الاقتصادية وجاء في تقارير رسمية وفي قرارات هيئات محترمة أن هذا الشاى الأسود هو أس مصائب الريف إن درجة أن بعض المصلحين كان يرى تقديم مسألة الشاى الأسود على كل مسائل الريف ومشاكله ، وقال بعض الثقات إنه يهدم الصحة هدما ويستنفد أكثر من نصف دخل الفلاحين لأنهم يستهلكون منه مقادير هائلة ؟ وبعد ذلك كله أوضح التحليل والبحث لعلمى الذى قامت به وزارة الصحة أن ضرره لا يزيد على ضرر أنواع الشاى الأخرى كما ثبت من الاحصاءات أن جميع أصناف الشاى بما فيها الأسود— لا يزيد ما تستهلكه مصر منها على ٨٠٠٠٠٠٠ جنيه فى السنة . تدخل فى ذلك العوائد الجركية على حين أننا نستملك من الدخان ما قيمته بعوائده الجركية سبعة ملايين من الجنيهات أى تسعة أمثال ما تنفقه على الشاى بكل أنواعه . بل ثبت كذلك من الحاجة الصحية أن الشاى الأسود المتكرر قليه أقل ضررا من سواه لأن هذا الشاى المتكرر انغلى تفرج منه معظم المواد المؤثرة كالتنين والتاين فى العلية الأولى .

وبالطبع ليس المقصود من هذه المقارنة تشجيع الفلاحين على تناول الشاى الأسود فإننا نؤثر أن يتفق الفلاح دخله فى ضرورات الغذاء والملبس قبل أى نوع من الكماليات .

ومثال آخر مما تفتح الدراسة والتجربة فيه آفاقا جديدة ، ذلك أنه كان من المتفق عليه أن فصل ماشية الفلاح عنه وعن أولاده أمر ميثوس منه وأنه لا بد له من إسكان بهائم معه رغم ما فى هذا الاشتراك من قذارة وهبوط بمستوى الفلاح الإنسانى وكرامته وذلك نخشيتة من سرقتها أو سرقه ظنفا أو من تسميمها أو حلب لبنها إذا كانت بعيدة عن البيت . لكن الدراسة المقرونة بالتجربة العملية أثبتت أن اقتناع الفلاح بفصل ماشيته عنه ليس بالأمر المستحيل ، فقد كنت فى كوم أمبو منذ أكثر من عام وحضرت فى بلدة السيل التابعة لتفتيش كوم أمبو تكوين مجلس للقرية . وكان من أوائل مهام هذا المجلس العناية بنظافة مساكن القرية وطرقها واستطاع الإخصائى الاجتماعى أن يقنهم بالمطق والمقارنات دون ضغط ولا تأثير بإنشاء حظائر منفصلة لإيواء المواشى وإطعامها . ولقد كنت ضعيف الأمل فى تحقيق هذا المشروع . ولكن حين رجعت إلى القرية بعد عام لم أجد بهيمة فى أى بيت فقد أقام الأهالى الحظائر صفتهم وصارت لكل أسرة حظاؤها فى مجموعة واحدة ومفتاح

كل منها في يد صاحبها . ولقد قيم خفير لحراسة هذه الحظائر ورأيت الأهالي فرحين بخورين جعلهم هذا وبما أدى اليه من نظافة بيوتهم وشوارع قريتهم . ولقد أتجوا كيات من المهاد البلدى علمت أن شركة كوم ابو تفاعضهم في شرائها بأثمان تغطى تقريبا تكايف إنشاء هذه الحظائر . ورأيت في دائرة هذا التفتيش قرى أخرى كثيرة تتقدم إلى الشركة لإعطائها أرضا لإنشاء أمثال هذه الحظائر أسوة بقرية السبيل مع قرض صغير يسدد على أقساط . ولستأ نرغم أن من البسير تعميم هذه التجربة في جميع القرى . وإنما أردنا أن نبين أنها ليست بالأمر المستحيل ، ولقد ضربنا هذين المثالين لإيضاح فضل الدراسة المستمرة والتجربة لعملية في كشف الخفايا وإنارة السبيل .

على هدى الدراسة العمية والتجارب العملية تسيير الجمعية المصرية لدراسات الاجتماعية في تجربتها التي اختارت لها قريتي المنايل التابعة لمركز شين القناطر وشطابوف التابعة لمركز شمون . والأولى لا يزيد عدد سكانها عن ١٧٠٠ نفس وهي محرومة من كل المرافق الضرورية ومن كل خدمة عامة وليس فيها حتى مكتب لتعليم الأطفال . ومستواها الصحي هابط وهي من مناطق الملايا . وأهلها رقيقو الحال إلا عددا من الملاك المتوسطين يعيشون بعيدا عنها أي في العاصمة ، وكان بها خلاف شديد على منصب العمدة . فهي بوفرة ما فيها من المشكلات والعلل ميدان صالح لتجارب الإصلاحية في جميع نواحيها .

أما الثانية فأكثر سكانا — إذ يبلغون نحو أربعة آلاف — وأحسن حظا في العمران . ففيها مدرس ونقطة بوليس ومكتب صحة وجمعية تعاونية ، وبين أهلها عدد من المستنيرين . وهكذا اختارت الجمعية لتجاربها صنفين مختلفين من القرى المصرية لتكون دراساتها متنوعة . وإذا كان العمل في إجهتين متشابهة فإني أكتفي بالتحدث عن سير التجربة في قرية المنايل . تقوم تجربة الجمعية على أسس ثلاثة :

الأول — أن يتناول الإصلاح مختلف النواحي الاقتصادية والصحية والثقافية في آن واحد ، لأن هذه النواحي مترابطة تؤثر كل منها في الأخرى ولا سبيل إلى فصل بعضها عن البعض . إذ ليس من خير أن تعلم تفلح وتركه فقيرا أو أن ترشده إلى وسائل النظافة وهو عاجز عن ثمن الصابون أو أن تعالج مرضه ثم تدعه جاهلا لا يستطيع وقاية نفسه من عودة المرض إليه . الثاني — أن يكون الإصلاح سهلا لا شذوذ فيه ولا خروج عن مألوف أهل القرية . وأن يكون قليل التكاليف ليسهل تطبيقه ويمكن تعميمه .

الثالث — أن يقتنع الفلاحون اقتناعا قليا بمزايا الإصلاح وبضروره فيقبلوا على الأخذ به ويساهموا فيه . على هدى هذه الأسس استطاعت الجمعية أن تصل في قرية المنايل إلى نتائج تبشر بالخير الكثير .

فأما الأمكنة التي خصصت لأعمال الإصلاح فهي :

أولاً - مركز للاجتماع ، وهو منزل عادي من منازل القرية أجزيت فيه اصلاحات وترميمات
وعنى بنظافته ونظامه وأجزته الشهرية جنبيان .

ثانياً - دار لرعاية الأمومة والطفولة ، وهي كذلك من منازل القرية العادية وقد تناولتها
الجمعية بالتهذيب والإصلاح .

ثالثاً - مدرسة قروية نموذجية أقامها مجلس المديرية حديثاً على نفقته وإن كان الأصل
أن تكون المدرسة في مقر المركز الاجتماعي بحيث يكون مدرسة بالنهار ومركزاً اجتماعياً في المساء .
أما الموظفون التائبون بالعمل فهم :

أولاً - إخصائى اجتماعى من نخبى مدرسة الخدمة الاجتماعية .

ثانياً - زائرة صحية من نخبىات مستشفى قصر العينى مقيمة من قبل وزارة الشؤون
الاجتماعية .

وقد استخدمنا لمساعدة هذه الزائرة الصحية دايتين من دايات القرية القديمات حتى
لا ينطل أرزاق هؤلاء الدايات فنحملهن على محاربة الزائرة الصحية وحتى يكون فى اتصالهن
بالزائرة تهذيب لمن وتعيد على الطرق الحديثة للتوليد والتعريض والنظافة .

وعدا هاتين الدايتين فتيات من أهل القرية أرسلناهن الى مركز رعاية الطفل ليدرسن
فى مدى ستة أشهر برنامجاً للتوليد فيمدن بعد ذلك الى القرية للخدمة فيها بجانب الزائرة وفى ذلك
كله رفع للمستوى الاجتماعى فى القرية بمعاونة أهلها أنفسهم .

وأول خطوة فى العمل هى الدراسة والبحث ، وهذه الخطوة تشمل :

أولاً - دراسة حالة القرية من مختلف نواحيها .

ثانياً - القيام ببحث اجتماعى شامل عن حالة كل أسرة من حيث السكنى والدخل
والثقافة والتغذية والملابس والطباع والمادات ... الخ .

ثالثاً - القيام بفحص طبي كامل لكل شخص فى القرية ، وهذا الفحص يشمل كل
أجزاء جسمه كما يشمل المرضى والأصحاء .

وهذا البحث وهذا الفحص يمر بان لأول مرة فى مصر وستكون نتائجها ذات قيمة
علمية للشغطين بمخدمة الفلاح وقرية .

والمركز الاجتماعى هو مقر للاجتماع والحديث وسماع بعض المحاضرات وبه نواة لمكتبة
قروية وجهاز راديو يستمع إليه المجتمعون ، وقد خصص للسيدات أحد أيام الأسبوع للفضور
والاستماع .

وأذكر بهذه المناسبة أن الإخصائي الاجتماعي والزائرة الصحية قد ظلّا يسمعان الإذاعة مع الأهالي نحو شهر قتيبن لما أن هؤلاء الفلاحين لا يكادون يفهمون شيئاً مما يذاع باللغة العربية الفصحى من محاضرات أو أحاديث رسمية أو غير رسمية وأن كل ما يصره ويسلمه بعد القرآن والأطاني الرضية هو أحاديث الأطفال يصفون إليها ثم يتناقلونها في مجالسهم وفي بيوتهم .

أما دار رعاية الأم والطفولة فتمضي بالحوامل والمواليد وتقوم الزائرة بالتوليد في مقرها أو في البيوت ، وقد اكتسبت بحسن عملها ووفرة اهتمامها ثقة القرويات فلم تعد حالة من حالات الولادة تتم إلا بإشراف الدر وعنايتها .

وتقوم الزائرة الصحية عدا ذلك بعمليات تنظيم . كما تقوم بعمليات الختان بالأملوب الطبي السليم لا بالطرق المتبعة الخطرة . وفي بعض الأحيان تحول الزائرة الصحية بعض عمليات العلاج إلى المستشفيات حين لا تكفي الوسائل العادية وهي توالى زيارتها وهناتها من يدخلن المستشفى حتى يتم لمن الشفاء .

وكذلك تمرر بناتنا لمرقبة نظقتها وإعطاء التعاليم الصحية وتنوير أذهان القرويات وتعليمهن بعض الأشغال اليدوية .

وقد كان لكل هذا أثره المحمود عند القرويات والأهالي جميعاً فصارت الزائرة الصحية في المكان الرفيع من تقمهم وحبهم ، وصاروا يأتون إليها إلى حد أن أسرة كانت تحتفل بزفاف إحدى بناتها أجلت لعرس حتى يسمح وقت الزائرة الصحية بالحضور لتجديل لعروس قبل الزفاف ، وتلك نتيجة سارة كل السرور إذ علمنا أن الزائرة الصحية كانت في أول الأمر تلمس مختلف لوسائل لدخول البيوت والاتصال بنسائها فالآن تهددن بالكف عن زيارتهن إذا لم يراعين الدقة في تنظيف بيوتهن وتنظيمها .

وقد حوّلت إحدى غرف دار الأمومة إلى "حمام" فيه نحسة ادشاش تستمد الماء من صهريج صغير يملأ بطلمبة يدوية بسيطة . وقد خصص يوم في الأسبوع لاستحمام النساء وتحرر بلاولاد إلى من النائية عشرة وثالث للبنات حيث يصرف للجمع الصابون والمناشف النظيفة وتمسخن المياه في صفائح بوابورات الغاز العادية .

وقد ساعد هذا النظام على نشر النظافة خصوصاً في فصل الشتاء. ولا تريد تكايف هذه العملية على ستين قرشاً في الشهر مع أن المترددين على الحمام لا يقلون عن المائة في الأسبوع . وقد تناولت العناية الصحية بالقرية دق عدد من الطلمبات بعضها يستعمل للمرة الأولى في مصر وبعضها ثبت عدم صلاحيته فلم تحصل هذه النتيجة السلبية من فائدة لأنها ستوفر على القائمين بالتجارب الاصلاحية استعمال أداة غير صالحة .

ومما يعث في فسي مزيد الاطمئنان إلى اقتناع الأهالي بأعمال الاصلاح أننا عمداً إهمال اصلاح إحدى هذه الطلمبات وتركها حاطلة أياماً فاكتمت الأهالي من تفقاء أنفسهم

وأصلحوها على نفقتهم ليشتروا ماء نقياً، وقد كنا أول الأمر نحتاج إلى مجهود لإقناعهم بالاشتراء سوى الماء النقي، بل لقد تقدم البنا الأهالي أخيراً راجين أن نعاونهم على دق طلمبة جديدة اكتبوا بنصف تكاليفها. وهذا ذلك فقد قاموا بدم بركة تبلغ مساحتها نحو فدان ولم نبذل لهم إلا اليسير من المساعدة كتأجير حير واستخدام سيارة نقل تابعة لمجلس المديرية.

أما من الناحية الاقتصادية فإن هناك عملاً على زيادة موارد القرية بإدخال بعض الصناعات الزراعية والمزلية وتهذيب النظم منها. ومما يساعد على ذلك أن الفلاح ليس مشغولاً كل أيامه، وأن المرأة القروية أوسع وقتاً من سواها فليس منزلها من السعة أو التيسار بحيث يتطرب زمناً طويلاً في التنظيف أو تنظيم الأثاث أو خياطة الملابس أو طهي الطعام. ولقد استمنا بمندوب من وزارة الزراعة لتحسين إنتاج العسل في البلدة إذ أن من صناعتها القديمة تربية النحل في الخلايا البلدية بغلبت لهم بعض المصافي وتحسن العسل فعلاً وصار يخرج نظيفاً صالحاً للسوق، وأصبح الرطل منه يباع بعشرين مليماً وخمسة وعشرين مليماً بدلاً من خمسة عشر دون أن تزيد تكاليف إنتاجه شيئاً.

ولأن في البلدة وحولها كثيراً من أشجار التوت اتفقنا مع وزارة الزراعة على معاونة الأهالي على تربية دود القز واستخراج الحيوط الجراحية من قدها. وكذلك نجحنا في اقناع الأهالي بالاكتاب لإنشاء جمعية تعاونية تخدم مختلف مرافقها الاقتصادية والزراعية.

وعيننا بتشجيع صناعة النسيج على الأنوال اليدوية، واستطعنا بمعاونة موظفة من وزارة التجارة والصناعة تعليم بعض البنات أشغال الإبرة والصوف لإنتاج بعض ما يحتاج إليه الريفيون كالطاقية والشال وقطعنا في هذا مرحلة طيبة، فإن إحدى البنات اللاتي تعلمن هذه الأشغال أخذت تلقنها لسواها من فتيات القرية، وتقدر هذه الموظفة أن الفتاة الشبيطة تستطيع أن تكتسب في اليوم أربعة قروش أو خمسة.

أما من الناحية الثقافية فللمدرسة التي أقامها مجلس المديرية منهج خاص فريد في بابها يمد الأطفال للبيئة الريفية ويعملهم في هذا المجتمع أعضاء سعاداً ناضجين ويتناول العناية بصحتهم ونظافتهم كما تعنى المدرسة بتلقينهم بعض الصناعات الزراعية والمزلية كتربية الدواجن وصناعات الألبان وغزل الصوف وغير ذلك. وقد ألحق بها حقل صغير للدراسات الزراعية وأكبر ظني أن هذه التجربة التعليمية ستكون ذات فائدة للفتين بإصلاح نظم التعليم الإلزامي.

وأما من الناحية الاجتماعية بشكل عام فهناك عناية خاصة بالصغار، إذ تنظم لهم ألعاب رياضية ورحلات إلى القاهرة لزيارة معالمها الهامة كحديقة الحيوان والمساجد الشهيرة. وتستغل

وسائل التزيب هذه في حملهم على المواظبة على المدرسة والمداومة على العناية بنظافة أجسامهم ومنازلهم .

ولم تفتنا ناحية الاحسان فقد تكونت من الأهالي جمعية تجمع الزكاة وتوزعها على مستحقيها في جو من التستر حتى لا تجرح كرامتهم ، وقد وزعت ملابس العيد على نحو ستين طفلا ما كانوا يستطيعون أن يلعبوا مع إخوانهم أو يشاركونهم في فرحة العيد ، وكانت هذه الفرصة مناسبة لتعليم بنات القرية الخياطة . وكذلك وزع الخبز على ٤٧ أسرة في عيد الأضحى فظفرت كل أسرة برطلين .

وعدا هذا ، وعدا ما يقوم به الإخصائي الاجتماعي من مراقبة نظافة البيوت في الخارج بجانب رقابة الزائرة الصحية على البيوت في الداخل ، وأغنى بالمراقبة الخارجية نظافة الشوارع والمسالك وخلوها من الأتربة والاقذار ، عدا هذا كله يقوم الإخصائي الاجتماعي بمعونة الأهالي بمعالجة حالات فردية هامة كحسم خلافات عائلية أو زوجية أو إيجاد عمل لأحد أفراد أسرة لا عائل لها .

وكذلك يقوم الإخصائي الاجتماعي بمخدمات أخرى كالسعادة في تسوية دين لدى أحد البنوك أو صرف مبالغ مستحقة عن الحكومة أو غير ذلك .
هكذا تسير التجربة سيرا موقفا في هدوء وتؤدة وتدرج .

ومن دلائل النجاح أن مسيو فانسينو رئيس مجلس ادارة البنك العقاري المصري وأحد رعاة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية حينما اطلع على التقرير السنوي عن هذه التجربة تفضل فعرض على مجلس الادارة أن يقوم البنك بالاتفاق على تجربة نالته في قرية جديدة . وقد قرر البنك أن يترك لوزارة الشؤون الاجتماعية وللجمعية اختيار قرية لهذه التجربة الجديدة وخصص لهذا الغرض مائة جنيه سنويا الى خمس سنوات مقبلة وإني أجبيل لجنابه وللبنك هذا الفضل المشكور وهذا التقدير الكريم .

كما أجبيل لفضل الاخلاص في العمل والتفاني في الخدمة للإخصائي الاجتماعي والزائرة الصحية فإنهما بامتراجهما بالأهالي وصدقهما في نصيحهم وإرشادهم جملا أعمال الاصلاح وخططه سائفة لديهم محببة الى نفوسهم .

ولسنا ندعى أن التجربة قد أملت بكل مشاكل القرية ، فهي من الكثرة والقدم بحيث تحتاج الى الوقت الطويل والتدرج المستمر ، لكنا نقول إننا قطعنا مرحلة في طريق الاصلاح تشجعنا على المضي فيه وتناول مختلف نواحيه وما توفيقنا الا بالله ما

أحمد حسين